قصة قصيرة مترجمة

الحاكم الأخير

قصة: مكتوبة في اللغة "هندي" بقلم أ.د. ديفيندر تشوبي *
ترجمة: : أ.د. مجيب الرحمن**

(تقوم قصة »الحاكم الأخير «على بنية رمزية محكمة, تتجاوز الحدث الظاهري الذي يتمثل في مقتل حاكمٍ عظيم إلى تشريح العلاقة الملتبسة بين السلطة والولاء .فالحاكم الذي مثّل رمز الاستقرار والهيبة يُقتل على يد أكثر المقرّبين إليه, لتبدأ سلسلة من الأسئلة التي لا تبحث عن القاتل المادي بقدر ما تكشف عن اغتيال المعنى الإنساني ذاته داخل منظومة الحكم.
الكاتب يوظّف حدث القتل ليرمز إلى انهيار القيم التي كانت تحكم المجتمع السياسي, وإلى تحوّل الحارس إلى جلّاد, والوفيّ إلى خائن, والإنسان إلى كلب. وحين ينتهي التحقيق إلى أن القاتل قد يكون الكلب نفسه, أو مزيجًا من الإنسان والكلب, فإنّ القصة تبلغ ذروتها الرمزية :السلطة التي خلقت كائنًا مطيعًا إلى درجة العمى, انتهت بأن اغتالت نفسها بيده.
في جوهرها, القصة نقدٌ لاذعٌ لواقعٍ تتماهى فيه السلطة مع العنف, والإنسان مع الحيوان, حتى لا يبقى من «الولاء» سوى غريزةٍ عمياء. وهكذا يغدو *«الحاكم الأخير»* شهادة أدبية على نهاية الإنسان في زمنٍ صار فيه الوفاء خطرًا, والكلاب حراسًا للعروش, والحقائق تُوارى في غابات الصمت.
يمكن أن تعتبر قصة »الحاكم الأخير «ضمن تيارٍ الأدب الهندي الحديث الذي استخدم الرمز السياسي والأسطورة الواقعية أداةً لفضح الاستبداد وتناقضات الدولة الحديثة. فديفيندر تشوبي لا يكتب عن حادثة قتلٍ فحسب, بل عن انهيار منظومة العدالة الأخلاقية في ظلّ السلطة المطلقة. إن القصر الورديّ في القصة ليس مكانًا محددًا, بل هو استعارة عن الوطن الذي تحكمه طبقةٌ من الأوفياء الذين فقدوا إنسانيتهم, فتحوّلوا إلى «كلابٍ حارسة» تطيع بلا وعي.
بهذا المعنى, تنتمي القصة إلى تقاليد رمزية راسخة في الأدب الهندي والعالمي, تذكّرنا بأعمالٍ مثل "مزرعة الحيوان" لجورج أورويل و"الملك هو الملك" لسعد الله ونوس, إذ تتقاطع جميعها عند فكرة واحدة :حين تتماهى السلطة مع الحيوانية, يغدو الإنسان آخر الضحايا.
ومن هنا, فإن "الحاكم الأخير" ليست فقط قصة عن اغتيال زعيم, بل مرثية لوطنٍ اغتيل فيه الضمير.)

الحاكم الأخير

حدث ذلك لأول مرة في تاريخ المملكة! كانت العاصمة كلها غارقة في الذعر. فبعدما كُشف عن هوية قاتل الحاكم الأعلى استنادًا إلى الأدلة التي وُجدت في مسرح الجريمة, عمّت الدهشة والارتباك بين الناس.

---

* أستاذ الأدب الهندي في مركز دراسات اللغات الهندية, كلية اللغة والأدب والثقافة, جامعة جواهر لال نهرو, نيو دلهي, ناقد ادبي, وقاص, حائز على جوائز.
** الأستاذ والرئيس السابق, مركز الدراسات العربية والإفريقية, جامعة جواهر لال نهرو, نيو دلهي.

"كيف يمكن أن يحدث هذا؟" كان هذا السؤال يتردّد على كل لسان. أن يرتكب أحد مثل هذا الفعل، ودون أي سبب، بدا أمرًا مستحيلًا. والأدهى من ذلك أن الجريمة ارتُكبت على يد أكثر الناس إخلاصًا له!

لقد كان الحاكم الأخير رجلًا ديمقراطيًا، زعيمًا محبوبًا من الجميع، قدوة للشباب، ورئيسًا لمجلس الخدمة مدى الحياة، يعيش في القصر المحصَّن الذي وُصف دومًا بأنه رمز الحكم الرشيد. أن يُقتل مثل هذا الحاكم الرحيم على نحوٍ وحشي، لم يكن أمرًا يخطر ببال أحد.

كانت التقارير تشير إلى أن الجريمة ارتُكبت بيد أقرب الناس إليه، الذي لم يفارقه لحظة واحدة. كان له وحده الحق في تجاوز الخط الذي يُمنع عندها حتى حراس القصر ومستشاروه من التقدُّم. وراء تلك النقطة كان الدخول محظورًا على الجميع... إلا عليه.

لم يكن للحاكم الأخير أسرة، غير أن الناس كانوا يقولون إن حتى لو كانت له عائلة، لما نال أحدٌ من قربه ما ناله قاتله المزعوم. كانت الحيرة تعتصر القلوب: لماذا أقدم على ذلك؟ إن صحّ الأمر، فسيكون أكبر خيانة عرفتها البلاد. كيف يقتل من أقسم الولاء أمام الأمة كلها؟

أمر لا يُصدَّق! لا يُعقل!! لا يُتصوَّر!!!

حين وصل خبر اغتيال الحاكم إلى الناس، ساد الصمت أرجاء البلاد، وكأن الأنفاس توقفت. فالجريمة لم تكن عادية، ولم يكن القتيل شخصًا عاديًا. دوّت في العاصمة النداءات:

"يُعلَن للشعب أن من يدلّنا على القاتل سيُمنح مكافأة ضخمة من الحكومة!"

تبادل الناس الهمس في الأسواق والمقاهي:

–"ما هي المكافأة؟"

–"اخفض صوتك! حتى الجدران لها آذان!"

ثم يسود الصمت المريب.

كان أحدهم يقول في مطعم شعبي:

–"آه... يا له من مشهد بشع! لم يكن يُعرف من الجثة إن كانت له حقًا. حتى الجنود صُدموا: كيف دخل القاتل إلى هذا المكان المحصَّن؟ وإن دخل، فكيف خرج بعد أن أتمّ جريمته؟"

عمّت الاضطرابات البلاد كلها.

كان القصر الذي أقام فيه الحاكم يُعرف بالبناء الوردي، وله ثلاثة أبواب رئيسية:

من الشرق بابٌ لا يُفتح إلا أمام كبار الموظفين بعد صعود سبع عشرة درجة دائرية؛

ومن الشمال يدخل منه الحاكم ومعه خادمه الأمين وحرسه المقرّبون؛
أما الباب الغربي فكان لعامة العاملين والزائرين.
وعند كل باب جنود مدججون بالسلاح يحرسون ليلًا ونهارًا. ومع كل تلك الحراسة المحكمة, كيف تسنّى للقتلة أن يهربوا؟!
كانت آثار الدماء واضحة على الطريق المؤدي إلى الخارج, وهو ما جعل الأمر أكثر غموضًا: كيف اختفوا بأقدامٍ مضرجة بالدم؟!
انتشر رجال الأمن والجيش في كل مكان, يبحثون في الجبال والقرى المحيطة. وصلت أنباء إلى المقرّ الأمني تفيد بأن القتلة شوهدوا في قرية خارج العاصمة, فسارعت القوات نحوها.
كان بين المندفعين رجلٌ من منطقة ميرَت اسمه "سومبال" في منتصف العمر, صاح وهو يجري:
–"سأريكم كيف يُطارد القاتل! أجدادي كبّلوا أعناق الطغاة في العصور الوسطى, وأنا حفيدهم الحق! أنا راجپوت أصيل!"
أما الواقفون عند المقهى, فرأوا اندفاعه بدهشة:
"إذا كان الجنود والمخابرات فشلوا في العثور على القاتل, فماذا سيفعل هذا الرجل وحده؟"
لكن حماسه أشعل فيهم روحًا غريبة.
كان الناس يقولون إن أجداد «سومبال» من سلالة «پرمار» الراجپوتية الذين جاءوا إلى ميرت في عهد الإمبراطور المغولي أكبر, وإنّ أبناءهم قاتلوا بشجاعة إلى جانب الملك بهادر شاه ظفر ضد شركة الهند الشرقية عام ١٨٥٧, واستُشهد معظمهم. ثم عانت ذريّتهم بعد الاستعمار من الظلم والإقصاء, فصودرت أراضيهم, وحُرم أبناؤهم من التعليم, واضطرّوا إلى أعمالٍ وضيعة ليبقوا على قيد الكرامة.
حين رأى الناس «سومبال» يعدو نحو القرية, قالوا:
"هذه ليست ركضة عادية, بل ركضة محارب"!
كان المقهى قائمًا تحت ظلال شجر التمر الهندي والبيپل والنيم والجميز, مكانًا صغيرًا على ناصية مزدحمة بالموظفين والجنود والناس القادمين من القرى لقضاء حوائجهم, يأكلون ويستريحون ويثرثرون.
وفي تلك الجهة كانت ثلاث بنايات تابعة للحكومة, منها مكتب الخزانة الذي يراجعه الناس كل يوم لتصريف المعاملات المالية. كان الحديث في تلك الأمكنة يدور حول السياسة وشؤون

الدولة، لكنّ مشهد الكلاب الكثيرة التي كانت تسرح قرب المقهى كان يثير امتعاضهم. ومع ذلك، لم يجرؤ أحد على طردها، لأنّ الحاكم كان قد أمر بمعاملة الكلاب بعطفٍ ومودة، حتى لو أكلت طعام البشر!

وكانت تلك الكلاب، وكأنها تدرك مكانتها، تمشي بين الناس بزهوٍ وغرور. كان بعض الموظفين يعتقد أن أرواح الحكام السابقين تسكن أجسادها، ولهذا فهي تمشي بثقة الملوك، وأنها يومًا ما ستتولى قيادة القصر بأكمله!

كانت المسألة مثيرة للريبة: فعلى الرغم من إعلان جهاز المخابرات عن رصده آثار القتلة في الجبال القريبة من القرية، إلا أن أحدًا لم يتمكن من القبض عليهم. كانت الأخبار تقول إنهم جُرحوا جروحًا بالغة أثناء فرارهم، وأن الصخور في الجبل تلطّخت بدمائهم، وهو ما دلّ على أنهم عبروا من هناك إلى داخل القرية.

غير أن السؤال الذي حيّر الجميع هو:

إذا كانوا جرحى على هذا النحو، فلماذا لم يُعثر عليهم بعد؟ من الذي أخفاهم؟ هل ساعدهم أحد من القرويين؟

أم أنهم عبروا من القرية إلى غابات الجنوب المظلمة؟

أم أن الأرض ابتلعتهم؟

أم لعلهم لا يزالون مختبئين في أحد السراديب المجهولة تحت القرية؟

كانت هذه الأسئلة تثير الرعب في النفوس، فقد صار الأمر أقرب إلى الخيانة العظمى، خيانةٍ للحاكم وللأمة معًا.

وسرعان ما أُعلنت حالة الطوارئ في العاصمة، وأُرسلت إلى جانب رجال المخابرات وحداتٌ من الجيش مزودة بالمركبات المصفحة، مع أوامر صارمة:

"لن ينجو القتلة في أي حال من الأحوال"!

انتشرت القوات في الطرق والأسواق والبيوت المشتبه بها، وغاص الجنود في الأكوام والحقائب يفتشونها بحِراب بنادقهم المغروزة في القشّ والصناديق.

ورغم كل هذا التفتيش، لم يُعثر على أي أثر للقتلة!

كان ذلك عارًا على أجهزة الأمن التي تمتلك أحدث الأسلحة وأفضل الوسائل التقنية.

وكان الناس يسمعون همس الجنود وهم يتحدثون فيما بينهم أثناء التفتيش:

» –كيف أمكن لأحدٍ أن يدخل قصرًا كهذا؟ جدران من الحجارة المغولية الممزوجة بملاطٍ سري

يقاوم تقلبات الزمن، وجنودٌ مدججون بالحراب يحيطون بالمكان ليل نهار، وزجاجٌ عاكس يرى كل شيء من بعيد!...

هل يعقل أن يدخل أحد دون إذن؟

أم أن القتلة من أهل القصر أنفسهم؟«

كان الحاكم، حتى قبل اغتياله، يعيش في عزلة غامضة؛ لم يكن يُرى إلا عبر صوره المعلّقة في كل مكان – من العاصمة إلى المدن الكبرى – أو يُسمع صوته في الخُطب المسجَّلة التي تُتلى على الناس كأنها آيات مقدسة.

كانت كلماتُه تُبثّ في الساحات العامة بصوتٍ مهيبٍ يُصغي إليه الجميع بخشوعٍ كأنهم يسمعون وحيًا من السماء أو تلاوةً في طقسٍ مقدس:

"علينا أن نصبح أعظم أمة في العالم، حتى يُمجّدنا العالم أجمع!

يا شعبي العزيز، إلى متى تنامون؟ انهضوا، فشمس الصباح تقف على الباب ترحّب بكم!

لقد كانت كلمتنا مسموعة في كل أرجاء الأرض، ونشرنا نور المعرفة في الدنيا كلها.

لن يمر وقتٌ طويل حتى تحكم سلالتنا العظيمة هذه البلاد من جديد!"

كانت هذه الكلمات تشعل حماسة الجماهير، وخاصة العبارة الأخيرة "سلالتنا العظيمة" التي كانت تجعل الناس في نشوةٍ تشبه التنويم.

كانوا يرددونها بفخرٍ وحب:

"يا له من حاكمٍ عظيم! من الذي تجرأ وقتله؟!"

وسرعان ما تحوّل الغضب الشعبي إلى مطالبةٍ صريحة بالانتقام:

"من قتل حاكمنا العظيم، فليُقدَّم للكلاب لتمزّقه إربًا!"

انتشرت هذه العبارة في كل مكان، وبدأت تتحوّل إلى شعارٍ وطنيٍّ جديد:

"الموت للقتلة... طعامًا للكلاب!"

وفي مساءٍ حابسٍ للأنفاس، وصل قائد المخابرات بنفسه إلى ساحة القرية، وكان الغضب يترشح من عينيه، فصرخ أمام الناس بصوتٍ مزلزل:

"هذه فرصتكُم الأخيرة! إن لم يخبرني أحدٌ خلال عشر ثوانٍ أين يختبئ القاتل، فسأختار واحدًا منكم عشوائيًا وأطلق عليه النار!"

اشتدّ التوتر، وراح بعض القرويين يحاولون التسلل بعيدًا من الساحة.

لكن أحد الجنود صرخ:

"إلى أين تفرّ أيها الوغد؟!"
وأمسك برجلٍ هزيلٍ كان يرتجف من الخوف كأنه طائرٌ في المصيدة.
تراجع الناس في رعبٍ، وبقيت ثوانٍ معدودة... الجميع كان ينتظر صوت الرصاص، غير عالمٍ من سيكون الضحية.
عندها تقدّم مختار القرية – رجلٌ عُرف بولائه القديم للحاكم وبصلاته القديمة بالقصر – وقال بصوتٍ مرتجفٍ ولكنه ثابت:
"سيدي القائد، أقول الحقيقة. القاتل ليس في قريتنا.
نعم، آثار الدماء تقود إلى هنا، ولكن انظر بنفسك: كل الأزقة ملوّثة بالدم، ولا أثر لبيتٍ دخله أحد.
هل يعقل أن يختبئ القاتل في الهواء؟!"
أعجب الناس بحكمته وجرأته، غير أن القائد لم يقتنع، فصرخ فجأة:
"اربطوا هذا الرجل النحيل إلى شجرة النيم هناك، واملأوا جسده بالرصاص!
لعل الآخرين يتكلمون!"
وفي اللحظة التي همّ فيها أحد الجنود بالتنفيذ، جاء أحد رجال المخابرات راكضًا وهو يلهث:
"سيدي القائد! خبر عاجل! لقد شوهدت آثار أقدامٍ مضرجة بالدم تتجه نحو غابات الجنوب. وصل أمرٌ فوري بالتحرك إلى هناك!"
توقّف الجندي في مكانه، ونظر إلى قائده منتظرًا الإشارة، فأومأ إليه بعينيه، ثم صرخ بأعلى صوته:
"انتباه أيها الجنود! إلى العربات! نتجه نحو الجنوب! القاتل هناك!"
وفي لحظاتٍ معدودةٍ كانت القافلة العسكرية تنطلق من القرية عبر الطريق الترابي المؤدي إلى الغابات.
كان ذلك يومًا عصيبًا، واليوم... بعد مرور الزمن، جاءت أنباءٌ جديدة صدمت الجميع:
كيف حدث كل هذا؟
كيف تمكّن عددٌ كبير من القتلة من دخول غرفة الحاكم في وقتٍ واحد؟
حتى كبار القادة الأمنيين لم يجدوا تفسيرًا. كانت تلك أكبر ثغرةٍ في تاريخ الحراسة الملكية.
أفادت التقارير بأن لجنة الأطباء الشرعيين التي فُوّضت بالتحقيق في مسرح الجريمة، قدّمت تقريرًا أربك الجميع، إذ حمل نتائج لا يمكن تصديقها.
كانت خلاصة التقرير تفيد:

"بعد فحص بقع الدم وآثار الأقدام التي وُجدت في مكان الجريمة, تبيّن أمرٌ غريب للغاية: ليست كلّ الآثار لقدم إنسان. فثمة أثرٌ واحد فقط يخصّ إنسانًا يُعتقد أنه الحاكم نفسه. أمّا الآثار الأخرى, فليست بشرية إطلاقًا, بل تعود إلى كلبٍ ضخم يُعرف باسم *شُوانْراج*, وهو كلب الحاكم المقرّب والأمين, ومعه ثلاثة عشر كلبًا آخرين. كلّها آثار متطابقة تؤكد مشاركتهم في الحدث بطريقةٍ ما..."

ثم تابع التقرير في فقرته الأخيرة كلماتٍ وقعت مثل الصاعقة على مسامع الجميع:

"لم يتمكّن فريق الفحص من الجزم عمّن يكون القاتل الحقيقي:

هل هم بشر؟

أم أنّ الحاكم قُتل على يد كلبه الأمين "شوانراج" ومعه جماعته من الكلاب؟

لكن الغريب أنّ هذه الكلاب لم يُرَ أيٌّ منها مع "شوانراج" من قبل, ولم يُشاهد هو بين جماعتها قطّ.

وحتى عندما قارن الفريق آثار أقدام الكلاب التي تُرى عادةً قرب المقهى القريب من القصر بآثار الكلاب التي كانت في غرفة الحاكم, تبيّن أنها مختلفة تمامًا.

وعليه, لا يمكن اعتبار تلك الكلاب التي تجوب قرب المقهى هي القاتلة أو حتى مشاركة في الجريمة."

عمّ الصمت البلاد بعد صدور التقرير, وبدأت الأسئلة تتناسل في عقول الناس:

هل قُتل الحاكم بيد إنسانٍ أم بيد كلبٍ صار يشبه الإنسان؟

أم أنّ الإنسان والكلب قد تماهيا في كائنٍ واحد, في عقلٍ واحد, في نزعةٍ واحدة؟

قيل إن التحقيقات ما زالت جارية حتى اليوم, وإنّ أجهزة الدولة لم تتوصل بعد إلى نتيجة نهائية.

فمن يكون القاتل؟

الإنسان؟

أم "شوانراج" ملك الكلاب, ومعه الثلاثة عشر كلبًا الآخرون؟

لكن الحقيقة, كما تسري في همسات بين الناس, كانت أعمق من ذلك:

لقد صار الكلب إنسانًا, أو بالأحرى, صار الإنسان كلبًا يتوهم أنه أرقى من الإنسان الآخر, ويرى نفسه «الأشرف», وحقه أن يحكم وأن يقتل باسم «السلالة العليا"!

تلك كانت الجريمة الكبرى, لا في موت الحاكم وحده, بل في انبعاث عقلٍ وحشيٍّ في جسد الإنسان.

فمن الذي ارتكب الجريمة حقًّا؟
الكلاب التي كانت على صور البشر؟
أم البشر الذين اتخذوا وجوه الكلاب؟
ما زال الناس يقولون بعد مرور ما يزيد على ثلاثة عقود:
"التحقيق مستمرّ, والقتلة لم يُعثر عليهم بعد. لقد اختفوا يومها في الطريق المؤدي إلى غابات الجنوب, وغاصوا في ظلالها كما تذوب الخطايا في الظلام..."

.... ***** ....